فن الإلقاء في الخطابة اليونانية القديمة

ὑποκρίσις

فكرية مصطفي صالح

الخطابة علم له أصوله وقواعده، والتي تمكن الدارس لها من التأثير على السامعين ، و يهتم بدراسة طرق التأثير و وسائل الأقناع ، و ما يجب أن يكون عليه الخطيب من صفات و قدرات اذ كانت فصاحة اللسان عند الأغريق هبة لا تقل عن الشجاعة فى ميدان القتال . و لعلنا نلمح ذلك فى أشعار هوميروس ، ففى الكتاب الثانى من الألياذة تتضح قدرة الخطباء و الأبطال أجاممنون و أوديسيوس و ينستور على أقناع الجنود بالبقاء فى صفوف القتال و الصمود بشجاعة (١) .

فهذا " نستور " القائد المسن الذى تعدى سن القتال يعتبر من الشخصيات البارزة بسبب فصاحته ، و قد وصف بأنه ذو الحديث العذب ἡδυεπής و الواضح λιγύς و الذى ينساب من لسانه على نحو أحلى من العسل :

τοῦ καὶ ἀπὸ γλώσσης μέλιτος γλυκίων ῥέεν αὐδή.(2)

و هذا مينيلاوس الذى يتحدث بطلاقة ἀγόρευεν ἐπιτροχάδην و بكلمات قليلة لكنها واضحة للغاية λεγέως ، لأنه παῦρα μὲν, ἀλλὰ μάλα ، ليس بثرثار πολύμυθος

كما أنه لا يتعثر فى خطابه . (3) οὐδ' ἀφαμαρτοεπής

و هذا أوديسيوس الذى تشبه قوة و غزارة كلماته ثلج الشتاء

... νιφάδεσσιν ἐοικότα χείμερίῃσιν (4)

---

(1) Homer , IL. II. LL 77 - 83 .

(2) Ibid I . LL 248 - 249 .

(3) Ibid III . 213 - 215

(4) Ibid III .221

– سئل " ديموستينيس " ذات يوم عن أول الأمور أهمية فى الخطابة فقال : الالقاء ὑπόκρισις

و ما الشيء الذى يأتى فى المرتبة الثانية فقال : الالقاء ὑπόκρισις ، ثم ما يلى ذلك فقال الألقاء ὑπόκρισις (1) و لعل تصريح ديموستسنيس هذا إن دل على شيء أنما يدل على أن الألقاء له أكبر مكانة و أهمية فى مجال الخطابة . و على الرغم من ذلك فإن ديموستينيس لم يكن أول من وجه الأنتباه الى أهمية فن الألقاء فى الخطابة ، بل سبقه الى ذلك السوفسطائى ثراسيما خوس الخلقيدونى . (2)

و لنرى الآن ماذا تعنى كلمة ὑπόκρισις فى مجال الخطابة .

يقصد بتلك الكلمة طريقة الألقاء أو فن الألقاء(sc. τέχνη) ἡ ὑποκριτική (3)

أما فى الدراما فتعنى طريقة الأداء على خشبة المسرح ، و قد ذكر أرسطو أن الشعراء فى البداية كانوا يقومون بأداء أدوار مسرحياتهم التراجيدية بأنفسهم :

ὑπεκρίνοντο γὰρ αὐτοὶ τὰς τραγῳδίας οἱ ποιηταὶ τὸ πρῶτον.(4)

و من كلمة ὑπόκρισις جاءت تسمية الممثل ὑποκριτής أى المجيب اذ كان عمل الممثل الأصلى يتمثل فى أن يدخل فى حوار مع أفراد الجوقة بأن يجيب على أسئلتهم،و لعل أطلاق هذه التسمية على الممثل ὑποκριτής تجعلنا نتساءل : ما هى العلاقة بين هذه التسمية فى مجال الدراما و بين مدلول كلمة ὑπόκρισις فى مجال الخطابة . و هنا يأتى أرسطو ليوضح لنا نوعية هذا الأرتباط و التشابه فى اللفظ اذ يقول :

---

(1) cf . Plutarch , lives of the ten orators (Demosthenes) 845B , Quint . XI .III . 5 .

(2) cf . J.H. Freese . Arist . Rhet . introd . P. XVII . (L.C.L) .

(3) cf . Aristot . Rhet . III . I. 7 . (L.C.L).

(4) Ibid III . I 3

" أن طريقة الألقاء ὑπόκρισις (1) (في الخطابة) على جانب كبير من الأهمية μέγα τὴν δύναμιν ἔχει ὁ ، و قد سبقت في الظهور في كل من التراجيديا و الأنشودة الملحمية .

εἰς τὴν τραγικὴν καὶ ῥαψῳδίαν ὀψὲ παρῆλθεν(2)

و لعل هذه العلاقة بين دور الممثل على خشبة المسرح و دور الخطيب على منبر الخطابة إن دلت على شيء أنما تدل علي أهمية طريقة الأداء في مجال الخطابة ، و كذلك أنه كان على الخطيب أن تكون لديه الوسائل التي تمكنه من أن يقوم بدوره التعبيرى على منصة الخطابة . و لعلنا نتذكر الحادثة الشهيرة لديموستينيس الذي اصبح غير قادر علي مواصلة الحديث أمام فيليب المقدونى ، فأصبح كالممثل الذى نسى دوره على حد تعبير أيسخينيس . (3)

لذلك فان مثول الخطيب أمام الجموع المحتشدة يتطلب أمورا معينة تمكنه من أن يحقق الغرض من خطابه ، ألا و هو التأثير فى السامعين . و سنعرض هذه الأمور فيما يلى :

ذكر ويلكوك فى كتابه عن " الخطباء الأغريق " أن كبار الساسة الأثينيين كانت لديهم وسائلهم المتميزة فى مجال الخطابة العامة ، و كان حضورهم أمام مستمعيهم كما لو كانوا فى عروض مسرحية theatrical performances (4) .

---

(١) استخدم هيرودوت هذه الكلمة ὑπόκρισις بمعنى الإجابة answer

Cf. Herod. Book I. 116

(2) Aristot . Rhet . III . I. 3

(٣) أنظر أيسخينيس ، عن السفارة فقرات ٣٤ ، ٣٥

(4) M.M Willcock , Greek orators , vol III . P. I

لذلك فلا غرابة فى أن نجد ديموستينيس عندما لم يلق قبولا لدى الجماهير فى أحدى المناسبات يشكو من ذلك لأحد أصدقائه الممثلين و يسمى Satyrus فينصحه الأخير بأن يقوم بألقاء بعض الأبيات Τινα ῥήσεων من أعمال يوريبيدس أوسوفوكليس بطريقة مرتجلة ἐκ τοῦ παραυτίκα ποιήματος و بعد أن قام ديموستينيس بذلك ألقى Satyrus الأبيات نفسها و لكنه أضفى عليها طابعا خاصا حتى بدت لديموستينيس و كأنها شيء آخر غير الذى قام هو بإلقائه (1) .

و لعل ذلك إن دل على شيء أنما يدل على أن ما يحدثه الخطيب من تأثير يأتى مما يضفيه هو على أدائه من أبداعات خاصة به و نابعة من ذاته . فالقدرة على التعبير و نقل الأحاسيس و المشاعر و الأفكار تتطلب عدة أمور يجب أن تراعى من جانب الخطيب ، فهى الى جانب حسن اللفظ و العبارة أمور هامة تتعلق فى المقام الأول بالاستعداد الطبيعى ، ثم اخضاع كل أمر بعد ذلك للمران و الممارسة .

و لعل أول هذه الأمور هو القدرة على التذكر أو Τὸ μνημονεύειν بعبارة أخرى التحلى بذاكرة قوية قادرة على استحضار ما يريد الخطيب عرضه من أفكار .

و ليس للخطيب غنى عن هذه القوة و الى ذاكرة سريعة و إلا تلعثم و اضطرب فأنصرف عنه السامعون .

و لعل قوة الذاكرة هذه كانت بالنسبة للأغريق شيئا على جانب كبير من الأهمية و الدليل على ذلك أنهم جعلوا (مينموسينى) - الذاكرة - Μνημοσύνη أم ربات الفنون (الموساى) ، اذ كان شعرهم القديم شفويا يعتمد أساسا على الذاكرة فى بقائه عبر العصور .

---

(1) cf . Plutarch's lives (Demosthenes) ch . VII .

و لكن ما العلاقة بين القدرة على التذكر أو التحلى بذاكرة قوية و بين فن الإلقاء فى الخطابة ؟ لعل ذلك يتعلق بمدى تحلى الخطيب بالقدرة على الارتجال اذا ما أضطر الى ذلك فى بعض الأحيان ، اذ أن هناك العديد من المناسبات التى قد يضطر معها الخطيب أثناء إلقائه لخطبته أن يرتجل بعض العبارات ، و يتطلب الأرتجال بطبيعة الحال البديهة الحاضرة و سرعة الخاطر ، و هذا لا يتيسر الا بذاكرة قوية تجعله يستحضر المعانى المطلوبة و يرتب عناصرها فى ذهنه كى لا يخرج عن الموضوع .

ولعل أقرب وسيلة الى تقوية الذاكرة وما يتبعها من القدرة على الاتجال هى أن يستظهر الخطيب بعضا من أعمال من سبقوه ، ويجهد ذاكرته فى استيعابها والتدريب على القائها .

وقد تعددت الاراء فيما يخص مدى اهمية الاتجال فى الخطابة فهناك من يرى ضرورة التحضير للخطبة قبل القائها على السامعين دون اللجوء الى الارتجال ، اذ قال " بلوتارخوس " موضحا رأى " ديموستينيس " فى هذا الأمر :

أن من يقوم بتحضير الخطبة لهو رجل (القضايا) العامة :

Καὶ μέντοι δημοτικὸν ἀπέφαινεν ἄνδρα τὸν λέγειν μελετῶντα

لأن ذلك الأعداد يعبر عن أهتمامه بالجماهير :

θεραπείας γὰρ εἶναι τοῦτο δήμου παραίκεῦην.(1)

و علـى العكس من ذلك نرى " كوينتيليان " يؤكد على أهمية الأرتجال فى مجال الخطابة إذ قال :" إن القدرة على الأرتجال لهى نتاج عظيم لتعلمنا ، و أعظم مكافأة لجهدنا الشاق :

Maximus vero studiorum fructus est et velut praemium quoddam amplissimum longi laboris extempore dicendi facultas .

==========

(1) cf . Plutarch's lives (Demosthenes) ch . VIII . 6 .

كما يرى ضرورة أن يكون الخطيب على أستعداد للأرتجال فى أية لحظة ، و فى أية مناسبة (١) و أن يعطى العقل فترة من التأمل لا التردد :.

ut tamen deliberare , non haesitare videamur

و ذلك بجعل الالقاء بطريقة أبطأ ، مما يتيح الفرصة لترتيب الأفكار و العبارات (٢) حسبما يتطلب الموقف (3)

– أما النقطة الأخرى التى يجب أن نتحدث عنها فيما يخص فن الالقاء فى الخطابة فهى ما يتعلق بالصوت ، إذ ان النطق الحسن هو الدعامة الأولى للإلقاء الجيد ، فلا شىء يذهب بالمعنى الجيد أكثر من النطق الردىء . و الصوت هو المعبر عن مقاصد الخطيب و أغراضه و لعل كوينتيليان عندما ذكر أنه بالصوت تدرك هوية الفرد كما تعرف العملة من وقع رنينها كان يؤكد بذلك على ما للصوت من دور هام فى إظهار طبيعة و أصالة صاحبه بل و البلد التى ينتمى اليها (4)

و على الخطيب ان يراعى من جهة الصوت حسن الأداء و الأعتدال طبقا للحضور و المكان ، و أن يعطى كل حرف حقه فى النطق و يخرجه من مخارجه الطبيعية ، كما يجب عليه الإهتمام بعلامات الترقيم و بالوقفات بين الجمل (5)

(1) cf . Quint . X . VII . 1 - 4

(٢) أكد أرسطو على ضرورة ترتيب نقاط الخطبة

ὁ Τὸ πρῶτον ἢ δεύτερον ἢ τρίτον ἢ τέταρτον.

cf . Aristot . Rhetoric to Alexander , XXXVIII , 1437 a31 f; 1440 b4

(3) Quint X . VII 22.

(4) Ibid . XI . III 31 :

Nam sonis homines ut aera tinnitu dinoscimus.

(5) Ibid XI . III 33 - 35

وقد تكون هناك عيوب في النطق كاللعثمة والحبسة (أي ثقل النطق علي اللسان) ،
و قد يكون السبب فى ذلك عدم وضوح ما يريد أن يقوله الخطيب ، أو الحياء و الخجل ، أو قد يكون بالخطيب ضيق تنفس بحيث لا يستطيع أن يقول كلاما مفيدا من غير أن يقطع النفس بيانه ، و اذا عانى الخطيب أو تبرم من ضعف صوته أو غير ذلك من العيوب الخاصة بالنطق فلابد له من التغلب على هذه الأمور بالطرق المختلفة . و لعل أشهر الأمثلة فى هذا المجال هو الخطيب " ديموستينيس و الذى أورد بلوتارخوس رواية عنه تقول :

" لقد بنى له مكان سرى (تحت الأرض)(١) للدرس " :

Κατάγειον μὲν οἰκοδομῆσαι μελετητήριον, ...

و كان ينزل اليه Καταῖόντα كل يوم دون أنقطاع كى يصلح من طريقة القائه

و يصقل صوته : Τὴν ὑπόκρισιν πλάττειν

Διατονεῖν Τὴν φωνήν، و فى أغلب الأحيان كان يظل هناك قرابة شهرين أو ثلاثة ، و يقوم بحلق جانب واحد من شعر رأسه .

Ξυρούμενον Τῆς κεφαλῆς θάτερον μέρος

كى يمنعه الخجل من الخروج اذا ما رغب فى ذلك (2) .

و قد أكد أرسطو " على ضرورة مراعاة حال الصوت فى الأداء الخطابى و ما يصاحبه من أنفعال Πάθος ، و بين متى يجب أن يكون الصوت عاليا μεγάλη أو منخفضا μικρᾷ أو وسطا μέσῃ هذا من ناحية الكم .

==========

(١) يبدو أنها كانت حجرة خفية تحت سطح الأرض و لم يكن أحد على علم بها فى زمن ديموستينيس و قد سماها المعلق The lantern of Demosthenes (A) ، و لكنها كانت معلومة على عهد " بلوتارخوس " الذى قال :

لقد تم الحفاظ عليها الى وقتنا هذا : ὃ δὴ διεβώξετο καὶ καθ' ἡμᾶς (B)

(A) Plutarch's lives (Demosthenes) P. 19, not I . (L. C. L) .

(B) Ibid , ch. VII . 6.

(2) Ibid , ch VII . 6.

أما من ناحية الكيف فأما أن يكون حاد النغمة Βαρεῖα أو ذا عمق ὀξεῖα أو وسطا μέση (١) و يقول " كوينتيليان " يجب ألا يكون الصوت كعربة تسير فى أرض وعرة :

ne sermo subsultet imparibus spatiis ac sonis

أى يترنح فى ارتفاع و انخفاض بشكل غير قياسى .

كما أكد على ضرورة الأهتمام بعلامات الترقيم ، و متى يجب على الخطيب أن يتوقف قليلا عن الأستمرار فى الحديث ، أى يتمهل فى ألقائه ، و هذا ما عبر عنه الأغريق بكلمة ὑποστιγμήν (أى الفصلة) :

Observandum etaim , quo loco sustinendus et quasi suspendendus sermo sit , quod Graeci ὑποδιαστολήν vel ὑποστιγμήν vocant (2).

لذلك فان التمهل فى الألقاء هو من ألزم الأمور للخطيب .

و على الخطيب ألا يجعل صوته نمطيا يسير على وتيرة واحدة و هو ما أسماه الأغريق μονοειδίαν (3) ، و قد أكد كوينتيليان " على أهمية تجنب ذلك كى يأتى الصوت مصورا للمعانى .

و أيضا لتجنب ما يمكن أن ينتج عن ذلك من أجهاد لكل من صوت و نفس الخطيب (4).

و من العيوب الصوتية أن يكون بالخطيب ضيق تنفس بحيث لا يستطيع أن يقول كلاما مفيدا من غير أن يقطع النفس بيانه ، و يفسد عليه أسترساله كما ذكرنا من قبل و قد حاول ديموسيثينيس معالجة هذا العيب بالمران على الألقاء و هو يصعد الجبال ، و قد بين كوينتيليان ذلك بقوله :" و ليتحقق ذلك أعتاد " ديموسثينيس " أن يلقى بشكل متتابع مااستطاع

(1) Aristot , Rhet . III . I . 4 .

(2) cf . Quint . XI . III . 35 .

(3) Ibid XI . III . 44 .

(4) cf . Ibid XI . III . 45

vitemus igitur illam , quae Graeci μονοτονίαν vocatur , una quaedam spiritus ac soni intentio ;

من سطور كثيرة أثناء تسلقه (التلال)

quod Demosthenes ut efficeret , scandens in adversum

continuabat quam posset plurimos versus (1)

كما أكد " كوينتيليان " على ضرورة تجنب إجهاد الصوت بأكثر مما يحتمل .

vox autem ultra vires urgenda non est ,

و إلا تحول إلى ما يسميه الإغريق بصياح الديكة

Cui Graeci nomen a gallorum (2) ,

لذلك فيجب على الخطيب أن يجعل صوته مناسبا و لا يعلو حتى يكون صياحا .

و لننتقل بالحديث الآن عن شيء آخر خاص بطريقة الإلقاء ألا و هو الإشارات الخطابية . اذ أن المعنى تدل عليه ثلاث دلالات :

إحداها لفظية ، و الثانية صوتية ، و الثالثة الإشارات الخطابية . فإذا كان الصوت يناشد الآذان ، فان الأشارات المصاحبة للألفاظ تناشد العينين . و الأشارات الخطابية تتمثل في حركات تبدو من جسم الخطيب ووجهه و جوارحه ، و الهدف منها المساعدة على عرض أفكار الخطيب بطريقة شيقة وحية.وأفضل الإشارات هي الطبيعية البعيدة عن التصنع ، و هي تشارك الصوت في نقل ما يريد الخطيب أن يعبر عنه من أفكار و إنفعالات ، فهي اللغة العامة و المشتركة التي يفهمها كل أنسان ، و لا يكاد متحدث أن يستغني عنها ، فهي ضرورية للخطيب و بها يحرك الإنتباه و يصل الى ما يبغي من التأثير .

==========

(1) Ibid XI . III . 54

(2) Ibid XI . III . 52

ذكر المعلق الكلمة اليونانية التي تؤدى هذا المعنى و هى Κοκκυσμός

cf . H. E. Butler , Quintilian . vol IV.P.270 note I (L.C.L)

و قد ذكر " كوينتيليان " ما للإشارة من فائدة قائلا :

" و بالإشارة و الحركة أيضا يتحقق سحر (الأداء) :

Decor quoque a gestu atque motu venit .

لذلك فقد أعتاد ديموستينيس أن يقوم بالألقاء أمام مرآة كبيرة ليرى بعينيه على وجه الدقة ما يمكن أن يحدثه من تأثير :

ideoque Demosthenes grande quoddam intuens speculum componere actionem solebat , ... suis demum oculis credidit , quod efficeret " (1)

– و قد أستخدم الأغريق العديد من الأشارات الخطابية ذات الدلالة ، و منها على سبيل المثال

– استخدام أشارات الأصابع (2)

– أما عن الكيفية التى يجب أن يكون عليها الخطيب فى وقفته فنقول : عليه أن يتمهل قليلا بعد الوقوف و قبل التكلم ليتم له الإصغاء ، و يوجه اليه أنظار السامعين . و قد أعطانا "هوميروس " مثالا على ذلك ، فهذا " أوديسيوس " الذى كان يقف بعض الوقت محملقا فى الأرض قبل ألقاء خطابه ، ممسكا بعصاة ثابتة (على الأرض) دون حركة للأمام أو الخلف :

ὁτὰρ ἔπειτ' ἀνόρουσε δαΐφρων Ὀδυσεύς
ἕστη δ' σκῆπτρον δ' οὔτ' ὀπίσω οὔτε προπρηνὲς ἔνεικεν
ἀλλ' ἄρα τεμφὲς ἔχεσκεν (3)

==========

(1) Ibid , XI . III . 68 .

(2) cf . Ibid XI. III . 97 - 102 .

(3) Homer , IL . III . 217 - 219

كذلك نجد " أرسطو " يوصى الخطيب قائلا :

" عليك أن تعد (السامعين) لاستقبال (ما ستقول) :

(١) Παρασκευην ποιεῖσθαι ἑαυτῶι . . . .

" و يجب على الخطيب أن يكون معتدلا فى وقفته ، بلا إنحناء ، و لا تقوس . و قد تحدث " كوينتليان " عما كان يعانيه " ديموستينيس " من عدم أعتدال كتفيه ، اذ كانا يتحركان جيئة و ذهابا خاصة فى حالة الأنفعال و الحماس . و قد قال فى ذلك :

" و قد تهتز الأكتاف جيئة و ذهابا humeri et iactantur ، ذلك العيب الذى أستطاع " ديموستينيس " أن يتخلص منه :

quod vitium Demosthenes ita dicitur emendasse ut ,

و ذلك بإلقاء خطبة من فوق منصة ضيقة ، و معلق فوق كتفيه مباشرة رمح ، حتى اذا ما أخذته الحماسة و نسى ذلك العيب ، يتذكر عندما توقظه وخزة الرمح " :

Cum in angusto quodam pulpito stans diceret , hasta humero dependens imminheret , ut , si calore dicendi vitare id excidissiet , offenstione illa commoneretur (٢)

و قد أجمل " كوينتليان " عدة سمات كانت مألوفة لدى الإغريق بالنسبة للإلقاء و عددها بقوله :

" هناك (أمور خاصة بالخطابة) إستخدمها الإغريق بشكل متكرر :

in quod Graeci frequentissime faciunt ,

ومنها تحريك الأصابع و الشفاة بشدة ، كما لو كان (الخطيب) يتدبر ما سوف ينطق به :

Crebro digitorum aut oris ipsius motu commentari ,

و كذلك التنحنح clare excreare ، و مد احدى القدمين بعيدا عن الأخرى .

---

(1) Aristot , Rhetoric to Alexander XXXVIII . 35

(2) Quint . XI . III . 130

Pedem alterum longe proferre و الأمساك بجزء من الرداء باليد اليسرى Partem togae sinistra tenere ، و الوقوف و القدمان بعيدتان عن بعضهما البعض stare diductum..... أو الميل للوراء أو بانحناء incurvum ، أو جعل الأكتاف مقوسة خلف الرأس (أى يصير الخطيب كالأحدب) ad occipitum ductis كما يفعل المتصارعون وقت النزال . ut luctaturi solent (1)

– و صفوة القول يجب على الخطيب أن يكون بعيدا عن التكلف و الخروج عن المألوف فى حديثه و أشاراته و وقفته و طريقة ألقائه ، محافظا ما أمكن على صوته الطبيعى ، غير مقلد لغيره غير ملتزم بنبرة واحدة و حركة واحدة ، بعيدا عن الأكثار من الأشارة ، أو الأتيان بحركات مقبولة ، و عليه أن يبتعد عن كل ما يدل على الضعف أو يجلب الملل .

و ان التدريب و الممارسة ، و كثرة الأطلاع على أعمال الخطباء و العظماء من الرجال ، وحسن الذوق ، لهو أحسن معلم لهذا الفن .

==========

(!) Ibid XI . III . 160 .

١ – مصادر البحث

1 - Aristotle , Art of Rhetoric . (L.C.L.)
, Rhetoric to Alexander (L.C.L.)
2 - Herodotus , Book I (L.C.L.)
3 - Homer , Iliad . ed . M.M. Willcock , London , 1984
4 - Plutarch's lives (L.C.L.) .
5 - Quintilian . Vols.II , III , IV . (L.C.L.)

٢ – المراجع الاجنبية

1 - Kennedy , G., The Art of persuation in Greece , London 1963 .
2 - Jebb , R.C., The Attic orators from Antiphon to Isaeus , Vol.2 (London 1893 , repr . 1962).
3 - Willcock , M.M. , Greek orators , Vol.III , 1976 .